الأفعال الكلامية في الخطاب الروائي
رواية (زرايب العبيد) أنموذجا

أروي محمد أحمد الملا
أستاذ مساعد بكلية الآداب جامعة الملك فيصل

الأفعال الكلامية في الخطاب الروائي رواية (زرايب العبيد) أنموذجا

أروي محمد أحمد الملا
قسم الأدب والنقد بكلية الآداب جامعة الملك فيصل
البريد الإلكتروني :arwaalmulla@gmail.com

ملخص

تمتاز التداولية عن سواها من المناهج القرائية والنقدية بقدرتها على تفكيك البنية السطحية والعميقة في النص، ومن ثم الكشف عن خفاياه، وهي بما تمتلكه من موضوعات وآليات تمنح القارئ الحصيف إمكانية التقليب فيما يتداوله النص من علامات ودلالات، الأمر الذي جعلها تعتلي عرش النظريات النقدية في دراسة الخطاب الروائي؛ لما يحفل به من تقنيات سردية عمادها الفعل الكلامي الذي يعد النواة المركزية للأعمال التداولية

مثّلت رواية (زرايب العبيد) للكاتبة الليبية (نجوى بنت شتوان) أنموذجا خطابيا سواء في فنيتها السردية أو الموضوعية؛ إذ جمعت بين الأصالة والمعاصرة في بنيتها اللغوية، وتنوعت أفعالها الكلامية بين الفصحى والدارجة الليبية، فمثلت الواقع الاجتماعي في فترة من تاريخ العبودية الأسود؛ حيث الاضهاد العِرقي والجنسي في العالم العربي، وما يدور في دهاليز القصور من ضروب المعاملات بين الأسياد والعبيد، كما كشفت عن قطاع عريض من عادات وتقاليد السود.

يقوم الفعل الكلامي في رواية (زراب العبيد) كملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري بدور تواصلي يحقق أغراضا إنجازية وغايات تأثيرية بلاغية وإبلاغية، تتشكل في أفعال لفظية كأفعال الصوت والتبليغ والخطاب، وأفعال إنجازية، وأخرى تبليغية، من شأنها التعبير عما يحمله الخطاب من طاقات تعبيرية إلى المخاطب. وتتخذ في دلالتها نمطين؛ أحدهما مباشر يتمثل في الملفوظات التي يتطابق معناها الحرفي والقصدي ومعنى القول، كأفعال

الأحكام التي تنقل الواقع وتصفه وصفا مباشرا لا يحتمل التأويل، والقرارات التي يُعبر من خلالها الخطاب عن الأمور الطلبية المباشرة بقصد حمل المخاطب على تنفيذها، وأفعال التعهد المستقبلية، والسلوك التي تعبر عن الحالة النفسية والوجدانية، والإيضاح المسئولة عن إزالة ضبابية الخطاب. والآخر غير مباشر؛ توحي دلالتها العميقة بمقصود الخطاب، وتتمثل في الإخباريات التي تحمل طابع الأسلوب الخبري لفظا إنشائي معنى والتوجيهات التي نراها في الأسلوب الإنشائي غير الطلبي، والالزاميات المعبرة عن مقاصد الخطاب المستقبيلية من خلال الخبر التقريري، والتعبيرات التي يستنبطها المخاطب من الفعل ورد الفعل الخطابي، والإشاريات التي يتضمنها سياق الخطاب دون أن يفصح عنها.

الكلمات المفتاحية: الأفعال الكلامية- الخطاب الروائي- رواية (زرايب العبيد)- أنموذجا

Verbs in fictional discourse

The novel (Zarayeb Al-Ubaid) as a model

Arwa Mohammed Ahmed Al-Mulla

Department of Literature and Criticism, College of Arts, King Faisal University

Email : arwaalmulla@gmail.com

Abstract :

The deliberative feature is distinguished from other reading and critical approaches, by its ability to deconstruct the surface and deep structure in the text, and then reveal its secrets. Critical, in the study of fictional discourse; Because of its narrative techniques, its mainstay is verbal action, which is the central nucleus of deliberative actions

The novel (Zarayeb Al-Ubaid) by the Libyan writer (Najwa Bint Shatwan) represented a discursive model, whether in its narrative or thematic art. It combined authenticity and contemporary in its linguistic structure, and its verbal actions varied between classical and traditional Libyan, and it represented the social reality in a period of the history of slavery. As racial and sexual persecution in the Arab world, and what is going on in the corridors of palaces, of the forms of dealings between masters and slaves, it also revealed a wide sector of black customs and traditions.

The verbal verb in the novel (Zarrab Al-Ubaid) as a vocalized one that rises to a system (formal, semantic, constructive, constructive) is a communicative role that achieves achievement goals, and influential rhetorical and informational purposes, which are formed in verbal actions, such as actions of voice, communication and discourse, and

actions of achievement, and other communicative actions that express what Discourse carries it, from expressive energies to the addressee. And it has two implications in its significance: One of them is direct, represented in the archives whose meaning (literal, intentional and meaning of saying) coincides, such as verdicts that convey reality and describe it in a direct description, which is not likely to be interpreted, and the decisions through which the discourse is expressed about direct ordering matters, with the intention of inducing the addressee to implement them, and the actions of The future undertaking, the behavior that expresses the psychological and emotional state, and the clarification responsible for removing the blurry speech. The other is indirect; Its profound significance suggests the purpose of the discourse, and is represented in the informations that bear the character of the informative style, the directives we see in the constructive, non-demanding method, and the imperatives expressing the future goals of the speech, through the reportable report, and the expressions that the addresser deduces, from action and rhetorical reaction, and indications Contained in the context of the speech, without disclosing it.

Key words: Verbal Verbs - Narrative Discourse – Novel- Zarayeb Al-Ubaid- A Model.

مقدمة

لا يـزال الأدب شـعره ونثـره يفـيض بمكنونـات جديـدة مـع كـل قـراءة، فالمناهج القرائية تضـيء النص من زوايا مختلفة، تكشف كل زاوية عن دلالة جديد من دلالات النص، تحقق لذته وغايته –كما يقول رولان بارت–: "يبدأ النص غير الثابت، النص المستحيل مع الكاتب (أي مع قارئه). القراءة تجعل المكتوب بدايات لا تنتهي: إنها تكوّر المكتوب على نفسه، فهو لا يزال بها يدور، حتى لكأن كل بداية فيه تظل بداية. ولذا كانت نصوص القراءة هي نصوص البدايات المفتوحة: إنها تكتب، وتقرأ. ولكنها لن تبلغ كمالها كتابة، ولا تمامها قراءة. ولعل هذا هو السر في أنها كانت نصوص لذة"[١].

تعد القراءة بعدسة التداولية واحدة من أهم الاستراتيجيات القرائية التي تلقي الضوء على الزوايا الضيقة والخفية في النصوص عامة والأدبية خاصة، الأمر الذي يدفع بالمتلقي نحو التركيز في بنية الخطاب، فيفككه ويعيد بناءه؛ لأجل التقليب فيما يتداوله النص من علامات ومعطيات إشارية ودلالية؛ "فالنص تأجيلي، مجاله هو مجال الدال، ولا ترجع لا محدودية الدال إلى بعض الأفكار التي يعبر عنها، ولكن إلى فكرة اللعب، إذ لا يتم إيجاد دال ثابت (المفكرة التي تحمل الاسم نفسه) في حقل النص (أو بالأحرى فيما يكون النص فيه هو الحقل) حسب طريقة عضوية النضج، أو حسب طريقة تأولية عميقة، وإنما يتم بحركة متسلسلة للتفكيك والتداخل والتنوع. ليس المنطق الذي ينظم النص مفهوما (تحديد –ماذا يعني– العمل) ولكنه كنائي: يلتقي فيه عمل التجمعات والمجاورات والعلاقات مع تحرير الطاقة الرمزية"[٢].

١) رولان بارت: لذة النص، ترجمة: منذر عياشي، مركز الإنماء الخليجي/ دار لوسي، باريس، ط١، ١٩٩٢م، ص١١.

٢) محمد خير البقاعي: دراسات في النص والتناصية، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط١، ١٩٩٨م، ص١٤–١٥.

إن مسألة البحث في حقل النص –على هذه الشاكلة– يدفعنا إلى البحث في استراتيجيات الخطاب، حيث اللغة ووظائفها التأثيرية، ومقاصدها بين المرسل والمتلقي، ولعل هذا ما جعل القراءة التداولية في الفترة الأخيرة تعتلي عرش الدراسات الأدبية والنقدية باعتبار النص هو حلقة الربط بين المبدع والمتلقي، وحاجة الأخير إلى فهم ما يعنيه الأول، لاسيما في النص الروائي الذي يحفل بالعديد من تقنيات التواصل السردي، كالعرض[١] والإخبار، وقياس المشابهة[٢]، والتبئير[٣]، ووجهة النظر[٤]، ونغمة السرد[٥]، وغيرها من تقنيات لا تفسرها إلا اللغة، لذا كانت التداولية أنسب الاستراتيجيات للولوج إلى النص الروائي؛ لاهتمامها بدراسة استعمالات اللغة في العملية الخطابية.

---

١) العرض (showing) ، أوالإخبار (telling) : ويُقصد به: "مجموعة المواقف والوقائع المسرودة وفقا لتتابع تقديمها للمتلقي"(جيرالد برنس: المصطلح السردي– ترجمة: عابد خزندار– المجلس الأعلى للثقافة – مصر – ط١– ٢٠٠٣م– ص٢١٣) .

٤) مصطلح معياري يضاف من خلال مؤشراته للتواصل إلى مستوى حضور المؤلف الحقيقي في النص، وتبرز ملاحظة تلك المؤشرات كلما توافرت أكثر من إصدار مكتوب للمؤلف، بحيث يمكن التوصل من خلال تعدد الإنتاج التأليفي السابق لمواطن التشابه المكرر بين منتج الروائي اللاحق... وكلما زادت نسبة التشابه والتكرار تأتّى حضور المؤلف الحقيقي، وقلت نسبة حضور المؤلف الضمني الفني في النص"(عبدالرحمن الوهابي: معايير قياس أداء التواصل السردي، مقال منشور عبر الشبكة العنكبوتية– رابط:
https://www.researchgate.net/publication/310161909، ص٢٥٤)

٣) التبئير (focalization– focalization) : و"هو تقليص حقل الرؤية عند الراوي، وحصر معلوماته. سمي هذا الحصر بالتبئير؛ لأن السرد يجري فيه من خلال بؤرة تحدد إطار الرؤية وتحصره، فالمقصود بالتبئير هو حصر معلومات الراوي (وبالتالي القارئ) حول ما يجري في الحكاية"(لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية –مكتبة لبنان– بيروت– ط١–٢٠٠٢م– ص٤٠) .

٤) ويُقصد بها: "الوضع التصوري والمفهومي الذي يتم وفقا لشروطه عرض المواقف والوقائع، وقد تكون خاصة بالشخص المحيط أو العليم بكل شيء الذي يتغير موقفه وأحيانا يصعب تحديده، كما أنه لا يخضع لأية قيود تصويرية أو مفهومية،وقد يتحدد موقفه داخل المادة المحكية وبالذات في إحدى الشخصيات"(جيرالد برنس: المصطلح السردي، ص١٧٩)

٥) نغمة السرد– طبيعة السرد (tone/mode) : "الطريقة التي تنظم معلومات السرد، وطبيعة السرد تتوقف بشكل رئيس على ما إذا كان الغالب هو الإظهار أو الإخبار. وكذلك يتوقف على ما =إذا كان الغالب هو التبئير الخارجي أو الداخلي"(جيرالد برنس: المصطلح السردي، م.س،ص١٣٧)

تعكس رواية (زرايب العبيد) للروائية الليبية (نجوى بنت شتوان[1]) جانبا مطموسا من تاريخنا الخفي، لاسيما فيما يدور في خفايا قصور النبلاء والأثرياء بين الأسياد والعبيد؛ فتسلط الضوء على قسم هام من تاريخ العبودية الأسود، والاضطهاد الجنسي والعرقي في العالم العربي عامة والليبي خاصة، وتكشف المسكوت عنه في صفحات تاريخ العبودية الحديث فيما قبل الاحتلال الإيطالي لليبيا؛ حيث يُعامل العبيد معاملة البهائم- رغم المدنية والتحضر الإسلامي الذي بسط أجنحته على العالم، كما بسط حقوق الإنسان على أروقته.

صدرت الرواية عام ٢٠١٦م، عن دار الساقي في لندن، ورشحت في القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) عام ٢٠١٧م. تدور أحداث الرواية بين (محمد السيد) والعبدة السوداء (تعويضة)؛ حيث تجمعهما قصة حب تؤول إلى إهماله زوجته، وقد باءت محاولات الأسرة جميعها بالفشل في فض هذا العشق، لكنه لم يزدد إلا قوة، إلى أن ينتهى بعلاقة محرمة في الظلام، نتج عنها حمل تبلغ معه الحبكة ذروتها، وفي محاولات لاستدراك ما لم يُستدرك، يستنكر والده هذا الحمل المنكر في عادات السادة وأعرافهم، فيرسل ابنه في تجارة بعيدة؛ ليتثنى له القيام بمخططه الخبيث، وبتدبير من زوجته

١) نجوى بن شتوان، روائية ليبية، حاصلة على ماجستير التربية، جامعة قاريونس، لها العديد من الأعمال الأدبية، كانت أول أعمالها الروائية (وبر الأحصنة) الصادرة عام ٢٠٠٥م، التي فازت بجائزة مهرجان البجراوية الأول للخرطوم عاصمة للثقافة العربية، ثم روايتها (مضمون برتقالي) عام ٢٠٠٨م، وأخيرا روايتها (زرايب العبيد) عام ٢٠١٦م، كذلك صدرت لها العديد من القصص، ك (الماء في سنارتي) ، و(قصص ليست للرجال) ، و(طفل الواو) ، و(الملكة) ، و(الجدة صالحة) ، أيضا صدرت لها مسرحية (المعطف) عام ٢٠٠٣م، والتي فازت بالجائزة الثالثة لمهرجان الشارقة للإبداع العربي في دورته السادسة عام ٢٠٠٢م. نالت الكاتبة الليبية (نجوى بن شتوان) العديد من الجوائز الأخرى كجائزة مهرجان الشارقة للإبداع العربي في مجال المسرح، وجائزة مؤسسة فيستيفال لأفضل ٣٩ كاتبا عربيا للعام ٢٠٠٩م.(نقلا عن: جائزة كتارا للرواية العربية ٢٠٢٠، الشبكة العنكبوتية، رابط:Kataranovels.com)

التي قامت بإعداد شراب للعبدة (تعويضة) يحوي سائلا يجهضها، ولم تكتف بذلك؛ بل قامت بتزويجها من أحد العبيد. وعندما يرجع صاحبنا من رحلته، ويكتشف ما دار من أحداث، يشرع في البحث عن محبوبته، ويعيد لها حقها المهضوم قبل أن يموت.

تتميز الرواية بالإحكام الفني، وتبرز فيها عناصر التكنيك الروائي لاسيما في سردها الذي يحفل بالدلالات الصامتة تشع من أفعالها الكلامية؛ فرغم بساطة الخطاب السردي في الرواية، إلا أنه حافل بفسيفساء العامية الدارجة الليبية، الأمر الذي سيضفي عليها نوعا من التطريز الكلامي يثري النص ويخصبه من ناحية، ويعكس للقارئ جانبا عريضا من الثقافة الشعبية الليبية من ناحية أخرى، ويمكن للقارئ الحصيف استقراء العديد من إيحاءاتها من خلال تداولية خطابها السردي، وهو ما نحاول الكشف عنه في هذه الدراسة.

تجدر الإشارة إلى بكارة الرواية في مجال البحث الأدبي عامة والتداولية خاصة، ونطمع في أن تقع هذه موقع الإفادة والاستحسان.

●**أهداف الدراسة:** تهدف هذه الدراسة إلى:

- الوقوف على طبيعة المنهج التداولي في تناوله للنص الروائي، وأدواته التواصلية بين مقاصده الحقيقية وإيحاءاته الدلالية.
- التعريف برواية زرايب العبيد، وبنيتها الفنية والرمزية.
- الوقوف على الوسائل والأدوات الإجرائية التي اعتمدها الروائي في تحقيق معياري التأثير والإقناع في مفرداته وبنائه السردي.
- الكشف عن الكفاءات التي استند عليها الروائي في تحقيق مقاصده، ودور السياق في تحقيق فعل التواصل.

•منهج البحث:

اعتمد هذا البحث المنهج التداولي؛ كونه منصبا على البحث في وسائل التواصل بين المبدع والمتلقي، شاملا لأركان العملية الإبداعية، ولما له من آليات مؤثرة في المتلقي تتحقق معها عملية التواصل، ومن خلاله يمكننا كشف مقاصد الكلام ومعانيه، ومن ثَم تحقيق غاية البحث ومقصده.

•خطة البحث:

جاءت هذه الدراسة في مقدمة وتمهيد ومبحثين، بيانهم كالتالي:

المقدمة: وفيها موضوع البحث ومنهجه وخارطته التي يسير عليها.

التمهيد: تناول مفهوم التداولية –لغة واصطلاحا– وموضوعها، ومراتبها.

المبحث الأول: قراءة أولية في الأفعال الكلامية، تناولنا فيه الجانب النظري لهذه الدراسة، حيث عرضنا لمفهوم الفعل الكلامي، والمراحل التي مر بها في الجهود البحثية لكل من غريس، وأوستن، وسيرل.

المبحث الثاني : نظرية الأفعال الكلامية في رواية (زرايب العبيد)، عرضنا فيه للأفعال المباشرة؛ كأفعال الأحكام والقرارات والتعهد والسلوك والإيضاح، والأفعال غير المباشرة؛ كالإخباريات والتوجيهات والالتزامات والتعبيرات الإشارية ومؤثراتها في الخطاب الروائي في رواية (زرايب العبيد)، كما تناولنا فيه أثر الأفعال الكلامية في وحدات التواصل السردي من الناحية اللغوية والتوجيهية، ومردود ذلك على المتلقي.

الخاتمة: وفيها نتيجة البحث، وما توصلت إليه الدراسة.

التمهيد

كانت ولا تزال اللغة وسيلة التواصل والإقناع، بيد أن دلالتها تتلون بتلون القراءة، فالكلمة كائن حي ذو فعل وتفاعل، وتحور وتحول؛ تكتسب مع كل سياق دلالة جديدة، فهي عصب العملية التواصلية بين المبدع والمتلقي، ولذا فقد أولتها المناهج الأدبية قديمها وحديثها عناية خاصة، لاسيما التداولية، باعتبارها أحد علوم اللسانيات الحديثة، التي تهتم بجوانب العملية التواصلية بين المتكلم والمخاطب؛ إذ تصب اهتمامها على مقاصد المتكلم، مراعية مقتضى حال المتلقي أثناء العملية الكلامية، فالتداولية "علم تواصلي جديد يعالج الكثير من ظواهر اللغة ويفسرها، ويساهم في حل مشاكل التواصل ومعوقاته، لاسيما وهو المجال الرحب الذي يستمد معارفه من مشارب مختلفة، كعلم الاجتماع، وعلم النفس المعرفي، واللسانيات، والانثروبولوجيا، والفلسفة التحليلية..."[١]، نقول هذا رغم صعوبة التداولية منهجا وقراءة؛ إذ "ينبغي للمتخذ التداولية منهجا أن يعرف المرتكزات التي تقوم عليها، فثمة نظرية التواصل، وأفعال الكلام، والتلفظ، والكلام الضمني، والحجاج بكل ما تتضمنه هذه المرتكزات من تفضيلات وأبعاد وضوابط، ناهيك عن دور السياق في هذه الدراسات التداولية."[٢] تولي التداولية عناية خاصة بالكلمة؛ فهي عصبها، وعليها تقوم نظرية التواصل، ومنها تتألف الأفعال الكلامية، وتكون الألفاظ، ويتكون السياق، وإذا كان المنهج التداولي مسارنا في هذه الدراسة، فيهمنا أن نُعرّف أولا بالتداولية، وموضوعها، ومراتبها، ومن ثَم نعرج على الأفعال الكلامية التي هي محور هذه الدراسة.

---

١) نعمان بوقرة: اللسانيات ، اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠٠٩م، ص١٦٠.

٢) عبدالله بيرم: التداولية والشعر– قراءة في شعر المديح في العصر العباسي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، ط٢٠١٢،١م، ص٩.

التداولية، مصطلح غربي ارتبط في نشأته بالدراسات اللسانية التواصلية واللغوية، كما ارتبط بالتحليل السيمائي للخطاب؛ فتعرف بأنها "دراسة استعمال اللغة"[١]، وهو مفهوم واسع الدلالة يشمل شتى طرق توظيف الكلمة، وأوجه استعمالها في تكوين الدلالة داخل الخطاب وغيره، ولذا قصرها (ماري ديبير و فرانسوا ركاناتي) في كونها: "دراسة استعمال اللغة في الخطاب"[٢]، بيد أن هذا المفهوم لم يحد من شمولية المصطلح؛ فمع تعدد تعريف مصطلح الخطاب تتعدد النظرة المنهجية لمفهومه بوصفه واحدا من ثلاثة (أكبر من الجملة)، و(استعمال أي وحدة لغية) و(بوصفه الملفوظ)[٣]، وهو ما يعني شمولية مصطلح الخطاب لكل منطوق موجه إلى الغير بقصد الإفهام. لذا كان تعريف (فرانيس جاك) أكثر دقة؛ إذ ذهب إلى أن التداولية تعني: "دراسة اللغة كظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية معا"[٤]، فالتداولية بمفهومها الغربي "تحمل معنى الاهتمام المركز على مستوى لساني خاص، يهتم بدراسة اللغة في علاقتها بالسياق المرجعي لعملية التخاطب، وبالأفراد الذين تجري بينهم تلك العملية التواصلية"[٥]، وتصب التداولية عنايتها على المستوى التركيبي للغة، وما يجري داخلها من تفاعلات، وبالمستوى الدلالي من خلال دراسة الرموز والإشارات اللغوية وتأويلها وفق مقاصد السياق.

اكتسب مصطلح التداولية في مناهجنا العربية خصوصية وتحديدا عنه في الدراسات الأجنبية؛ إذ يعرف بأنه "علم جديد للتواصل يعنى بخصائص استعمال اللغة والدوافع النفسية للمتكلمين، وردود أفعال المستقبلين، والنماذج

١) جاك موشلار، آن ريبول: القاموس الموسوعي للتداولية ، ترجمة: مجموعة من الباحثين ، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة ، تونس ، ٢٠١٠م ، ص٢١.

٢) نعمان بوقرة: اللسانيات (اتجاهاتها، قضاياها الراهنة، عالم الكتب الحديث ، ط١، ٢٠٠٩م ، ص١٦٤.

٣) عبدالهادي بن ظافر الشهري: إستراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دارالكتاب الجديد، ط١، ٢٠٠٤م، ص٣٦.

٤) السابق نفسه.

٥) أبو زيد، نواري سعودي: في تداولية الخطاب الأدبي، في تداولية الخطاب الأدبي (المبادئ والإجراءات) ، بيت الحكمة، الجزائر، ط١، ٢٠٠٩م، ص١٨.

الاجتماعيــة للخطــاب وموضــوعه، وذلــك بمراعــاة الخصــائص التركيبيــة والدلالية"[١]، وبهذا أضحى المنهج التداولي قريب الشبه بالمنهج التكاملي – قديما–؛ إذ تهتم بالنواحي اللغوية والتركيبية والموضوعية والنفسية للنص، وما تثيره الكلمة والسياق من دلالة تؤثر في ردود أفعال المتلقي. ولذا عرفها (مسعود صحراوي) بأنها: "إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي والتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي، وتصير التداولية من ثم جديرة بأن تسمى "علم الاستعمال اللغوي"[٢].

موضوع التداولية:

تولي التداولية عنايتها للكلمة في النص، وعلاقاتها الوظائفية اللغوية، وما تسهم به في تحقيق فعل التواصل، وما تثيره من دلالات في النص، وغيرها من الكفاءات التي يمكن إجمالها في موضوعات أربعة، هي:

١) حافظ إسماعيل علوي: التداوليات (علم استعمال اللغة) ، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط١، ٢٠١٠م، ص١٣.

٢) مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي) ، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥م ، ص١٦ – ١٧.

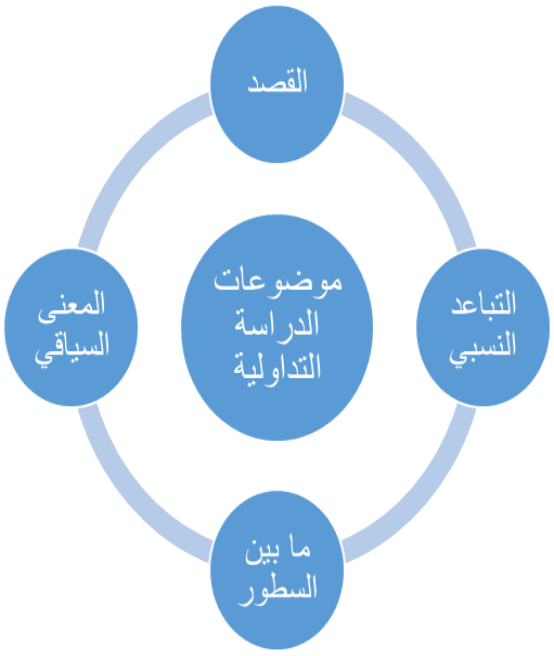

مخطط توضيحي للموضوعات التي تعني التداولية بدراستها.

تدور التداولية في فلم موضوعات أربعة، هي:

١- القصد: ونعني به ما يقصده المتكلم من وراء الكلمة المنظومة في السياق، فهي غاية "مرتبطة بتحليل ما يعنيه الناس بألفاظهم أكثر من ارتباطها بما يمكن أن تعنيه كلمات أو عبارات ألفاظهم"[١]، فوضع اللفظة منظومة في سلك السياق يختلف عن وضعها مفردة؛ إذ تقوم الكلمة هنا بدور تواصلي بين طرفي الخطاب، تقوم بالتعبير عن المقاصد التي ينتجها النص، وتسمى هذه العملية بالاستراتيجية التلميحية؛ حيث "يعبرالمرسل عن القصد بما يغاير معنى الخطاب الحرفي لخطابه، فيعبر عنه بغير ما يقف عنده اللفظ، مستثمرا في ذلك عناصر السياق"[٢]

١) جورج يول: التداولية، ترجمة: قصي العتابي، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٠م : ص١٩.

٢) عبد الهادي بن ظافر الشهري: إستراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، م.س ،ص٣٦٧.

٢- البعد النسبي: ونعني به " تحديد ما يقال وما لم يتم قوله ارتباطا بمفهوم التباعد distance، وينطوي القرب المادي أو الاجتماعي أو المفاهيمي على خبرة مشتركة؛ حيث يحدد المتكلمون مقدار ما يحتاجون قوله بناء على افتراض قرب المستمع أو بعده"[١]، إذ تتصف الكلمة بالإشعاع الدلالي، وهو ما يضع للخطاب الواحد تأويلات عدة قد تخرج عما يسعى المخاطب لتبليغه، وهو ما يعد خرقا لاستراتيجية التعبير، هنا يتجسد دور التداولية في استئصال الدلالات الخارجية؛ لتبقى دلالة مرسل الخطاب، ومن ثَم تتحقق المقاصد والأهداف التواصلية.

٣- ما بين السطور: تدرس التداولية كيفية إيصال المعان والدلالات غير المرئية في النص، من خلال الكيفية التي يصوغ من خلالها المتلقي استدلالاته حول النص ليصل إلى تفسير قصده، ومثل هذا يتجلى في وسائل التعبير الضمنية داخل النص، كالأسماء والكُنى والألقاب، أو اللهجات، وسلوك الشخصيات، وغيرها من وسائل التخييل، وهنا تضحي أداة التواصل أكثر أهمية في دعم العملية التواصلية بين المؤلف والمتلقي.

٤- المعنى السياقي: تصنف الإستراتيجية التوجيهية كأحد موضوعات التداولية؛ إذ تقوم بدور التحكم في توجيه الدلالة من خلال توظيف الصيغ و الأساليب والصور البلاغية التي يمكن من خلالها "تفسير ما يعنيه الناس في سياق معين وكيفية تأثير السياق فيما يقال"[٢].

تبرز أهمية المنهج التداولي من خلال موضوعاته تلك؛ حيث دراسة التواصل اللساني وديناميكية البنى اللغوية وتشكلاتها في إنتاج الخطاب وتوجيه الدلالة.

١) جورج يول: التداولية،م.س، ص٢٠.
٢) السابق.

مراتب التداولية:

تهتم التداولية بمظاهر السياق، والتي تختلف درجات تعقدها، الأمر الذي أدي إلى ضرورة إيجاد درجات متفاوتة لدراسة هذه المظاهر تتناسب ودرجة تعقدها. هذه الدرجات يوضحها المخطط الآتي:

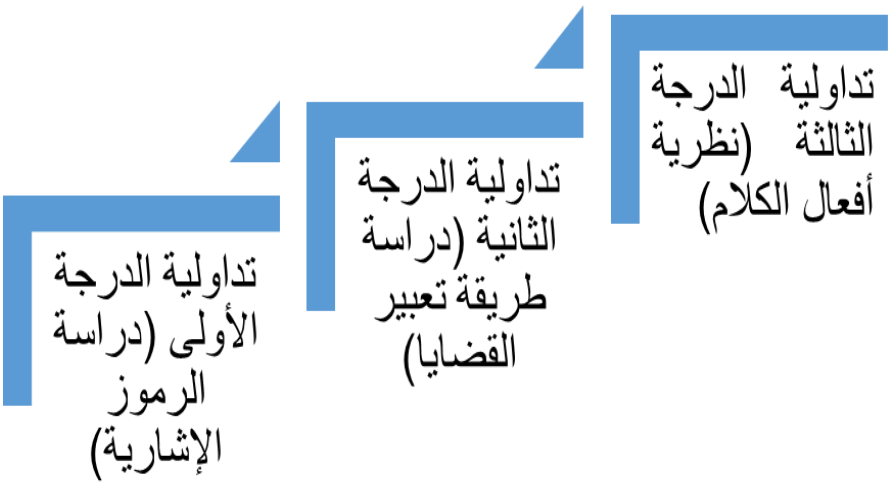

مخطط توضيحي لمراتب التداولية.

كان الهدف من تطور التداولية الذي قام به (جون أوستين، وبول غرايس، وجون سيرل) هو إيجاد طريقة دقيقة تحكم عملية التواصل، ولذا فقد "هدفت دراستهم إلى إيجاد طريقة لتوصيل معنى اللغة الإنسانية، من خلال إبلاغ مُرسِلٍ رسالة إلى مُستقبِلٍ يُفسرها"[١]، وقد أثمرت جهودهم عن جملة من النظريات، عُرفت باللسانيات التداولية، تبلورت في (الإشاريات، الاستلزام التخاطبي، والأفعال الكلامية)، ويعني هذا أن للتداولية ثلاث مراتب، "أولها خاصة بدراسة الرموز الإشارية؛ أي دراسة التعبيرات المبهمة ضمن ظروف

١) أحمد محمود نخلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي، دار المعرفة الجامعية، مصر، ٢٠٠٢م، ص٩.

استعمالها، وثانيها: دراسة طريقة تعبير القضايا، أي دراسة مدى ارتباط الموضوع المعبر عنه بالجملة المتلفظ بها، وعلى المتكلم تبليغ الدلالة في القضية المعبر عنها بتميز عن الدلالة الحرفية للجملة، وثالثها: معرفة ما تم من خلال استعمال الأفعال اللغوية، وهو ما يعرف بنظرية الكلام"[١]، فأما الإشاريات، فتتمثل في الإشاريات الشخصية كالضمائر، والزمانية كالتي تدل على زمان السياق، والمكانية كأسماء الإشارة والظرف[٢]، وتتعدد الإشاريات في النص إلى اجتماعية، ونصية، وخطابية... إلى "حيث لا يتحدد مرجعها إلا في سياق الخطاب التداولي"[٣]، أما الاستلزام الخطابي أو الحواري، أو ما نعني به دراسة طريقة تعبير القضايا، فنعني بها "عمل المعنى أو لزوم شيء عن طريق قول شيء آخر، أو قل إنه شيء يعنيه المتكلم ويوحي به ويقترحه ولا يكون جزءا مما تعنيه الجملة بصورة حرفية"[٤]، وقد وضع (غرايس) ثلاثة معايير تحكم نجاح عملية التواصل، يمكن تصورها في المخطط التالي:

١) فرانسوارأرمينيكو: المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء ، المغرب، ط١، ١٩٨٧م، ص٥٢-٥٣ (بتصرف) .

٢) عبدالهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، م.س، ص٨٤.

٣) السابق، ص٨١.

٤) صلاح إسماعيل: نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس، الدار المصرية السعودية للطباعة، القاهرة، مصر، ٢٠٠٥م، ص٧٨.

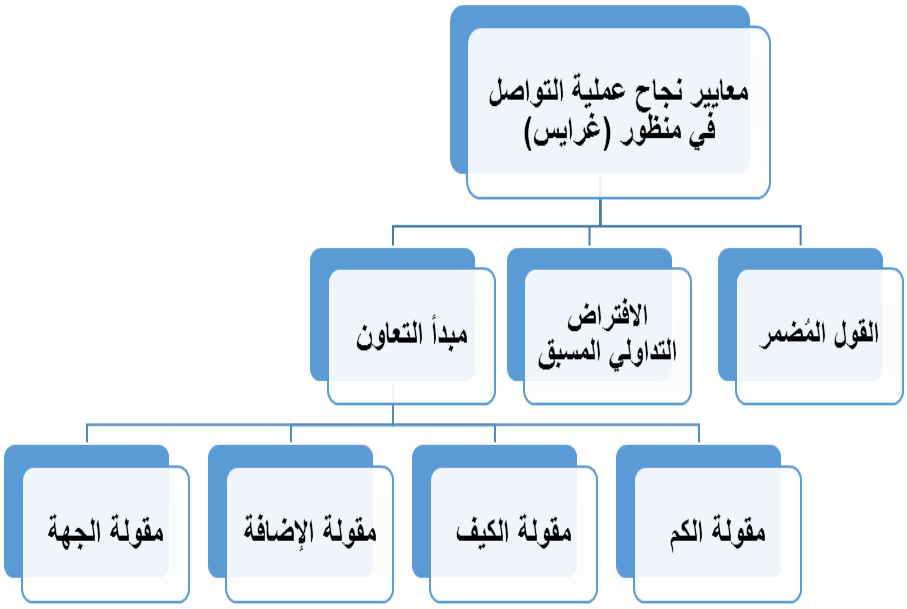

يشير القول المضمر إلى ما يحمله السياق من ضمنيات غير ظاهرة يستنبطها المخاطب أو يستقرؤها من السياق، كقولنا: الجو بارد، يتضمن دعوة إلى اتخاذ الإجراءات المناسبة لتفادي البرد، كلبس الملابس الثقيلة مثلا. في حين يشير الافتراض التداولي المسبق ما يتولد عن السياق الكلامي من افتراضات، كقولنا للمريض: راجع الطبيب، فيعني أنه لم يكن راجع الطبيب. ويأتي مبدأ التعاون؛ ليمنح العلاقة التخاطبية درجة من التقارب؛ إذ ينقسم إلى أربعة مقولات تحكمه، أولها: مقولة الكم، وهي ضابط كم الخطاب بحيث لايزيد ولا ينقص عن المعنى المراد إبلاغه. وتشير مقولة الكيف إلى ما يضبط مصداقية الخطاب وواقعيته، في حين تشير مقولة الإضافة أو المناسبة إلى ضبط الحوار بما يناسب مقام المخاطب، وأخيرا مقولة الجهة أو الهيئة والتي تشير إلى ضبط مستوى الصوت، وتنظيم الحوار وترتيبه، ووضوح الحجج والبراهين.

المبحث الأول
قراءة أولية في الأفعال الكلامية

تعد الأفعال الكلامية عصب التداولية؛ فإذا كانت التداولية هي فن الاستعمال اللغوي، فإن الأفعال الكلامية هي جوهر هذا الاستعمال، ولهذا " تعد نظرية الفعل اللغوي أهم جوانب التحليل التداولي بل إنها النواة المركزية للأعمال التداولية"[١]؛ فـ "كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، ويعد نشاطا ماديا نحويا يتوسل بأفعال قولية إلى تحقيق أغراض إنجازية كالطلب، والوعد والوعيد... وغايات تأثيرية تخص ردود فعل المتلقي كالرفض والقبول، ومن ثم فهو يطمح إلى أن يكون فعلا تأثيريا، أي يطمح إلى التأثير في المخاطب اجتماعيا أو مؤسساتيا، ومن ثم إنجاز شيء ما"[٢]، ويعني هذا أن الفعل الكلامي: "ذلك التصرف أو العمل الاجتماعي أو المؤسساتي الذي يُنجزه الإنسان بالكلام، ومن ثَم فالفعل الكلامي –عند أوستين– يراد به ذلك الإنجاز الذي يؤديه المتكلم بمجرد تلفظه بملفوظات معينة، ومن أمثلته: الأمر والنهي، والوعد والسؤال، والتعيين والإقالة..."[٣]، ويعني هذا أن أوستين قام بتقسيم الفعل الكلامي إلى قسمين، هما: الأفعال الإخبارية التقريرية، والأفعال الإنشائية الإنجازية:

١–الأفعال الإخبارية:

هي التي يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب من خلال مطابقتها للواقع من عدمه، بمعنى "إنها جمل تخبر عن وقائع العالم الخارجي، وهي توصف بالصدق أو الكذب، فقولنا مثلا: (الشمس تشرق من الشرق) فعل

١) ليندة قياس: لسانيات النص (النظرية والتطبيق – مقامات الهمداني إنموذجا) ، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م، ص١٩١.

٢) مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة أفعال الكلام، م.س، ص٤٠.

٣) السابق، ص١٠.

إخباري يتأكد صدقه لمطابقته للواقع، وقولنا: (الأرض ثابتة لا تدور) فعل إخباري كذب لأنه مخالف للواقع"[١].

ويعني هذا أن طرفي عملية التواصل في هذا النوع من الفعل الخبري، هما: المخاطب والمستمع؛ فالجملة الخبرية تتكون من ركنين أساسيين، هما المسند والمسند إليه، و"المسند إليه صورة المركب الاسمي أما المسند يدرج بفعل مصرف مع فاعله (المتكلم والمخاطب)، حيث تكون خاصية العمل إنك تقول شيئا ما عن شيء ما؛ لتحقق خبرا، فللإخبار صورتان، صورة موجبة هي الإثبات، وصورة ثانية سالبة وهي الإنكار، لكن طبيعة هذا العمل في إجماله يمثل حكما بالصدق والكذب على حالة الأشياء التي تمثلها الجملة"[٢].

٢-الأفعال الإنشائية الإنجازية:

هي الأفعال التي لا توصف بالصدق أو الكذب؛ إذ لا تصف الواقع، وإنما "هي التي ينطق بها المتكلم إذا أنجز فعلا، عكس النوع الأول الذي ينفي عنها الصدق والكذب"[٣]. إذا لا يمكن وصف الفعل الإنجازي بالصدق أو الكذب؛ لأن "هذه الأفعال يمكن لها أن تنجح أو تخفق، وهذا النجاح أو الإخفاق لن يتحقق إلا بشرطين، هما:

(أ) شرط تكويني: وهو أساس لتحقيق الفعل الأدائي في إجراء عرفي مقبول أو أثر عرفي مثل الزواج أو الطلاق، ويتضمن هذا الإجراء نطق كلمات محددة من أناس معينين في ظروف معينة، مثلا: في الزواج يشترط التلفظ بكلمات مثل: زوجني ابنتك.

(ب) شرط قياسي: وهو لازم للحكم على الفعل بالتوفيق أو الفشل، مثلا: يشترط أن يكون المشارك في الإجراءات صادقا في أفكاره ومشاعره

١) محمود نخلة: آفاق جديدة في البحث اللساني المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط١، ٢٠٠٢م، ص٧٩.

٢) القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة: عز الدين مجذوب، دار سيناترا، تونس، ٢٠١١م، ص٥٤.

٣) محمود نخلة: آفاق جديدة في البحث اللساني المعاصر ،م.س، ص٨٩.

ونواياه، فإذا قلت لشخص أهنئك بهذه المناسبة السعيدة وأنت في قرار نفسك لا تشعر بذلك بل بنقيضه فقد أسأت أداء الفعل"[١].

بيد أن هذين الشرطين سيحدثان نوعا من اللبس في ذهن المخاطب؛ فبعض الأفعال الإخبارية قد تقوم بدور الأفعال الإنشائية، كقولك: (أنا جوعان)، هذا خبر يحمل معنى الإنشاء، ويقوم بوظيفة أدائية –في الوقت نفسه–؛ إذ يؤدي معنى الطلب (احضر لي الطعام). ويبدو أن "أوستين" تنبه إلى هذا الإشكال، فعدل إلى أن الفعل الكلامي مركب من ثلاثة أفعال، قد تتولد من فعل واحد. ويمكننا فهم هذا التصور من خلال المخطط التالي:

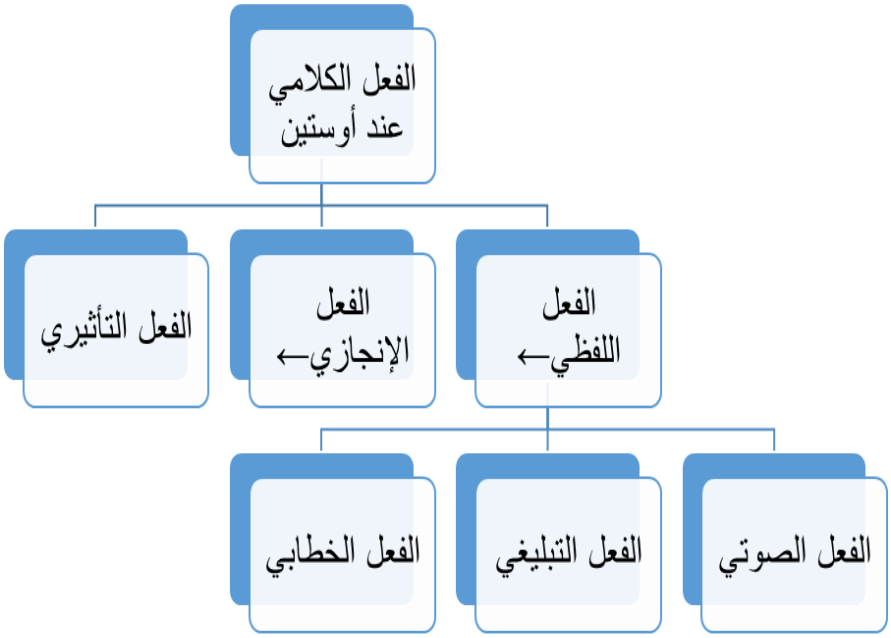

مخطط توضيحي لمركبات الفعل الكلامي عند "أوستين"

يشير المخطط السابق إلى أن الفعل الكلامي عند "أوستين" يتكون من ثلاثة أفعال، هي:

١) السابق، ص٩٣-٩٤(بتصرف) .

١-الفعل اللفظي، ويندرج تحته ثلاثة أفعال يتشكل بشكلها، هي الفعل الصوتي المتمثل في الأصوات اللغوية الملفوظة، والفعل التبليغي المحكوم بالقوانين النحوية، والفعل الخطابي الذي يمنح الملفوظات دلالة مقصودة.

٢-الفعل الإنجازي (الغرضي)، أو الفعل الوظيفي، واكتسب اسمه من وظيفته الاستعمالية كالأمر والنهي والحض...

٣-الفعل التأثيري: ونعني به ما يتركه الفعل الإنجازي من أثر عكسي في المخاطب.

اتصلت جهود (سيرل) بجهود أستاذه (أوستين)، بيد أنه أدخل عليها بعض التعديلات؛ فقد رأى أن "الفعل الكلامي مرتبط بالعرق اللغوي والاجتماعي"[١]، وعليه فقد جمع تقسيمات أوستين لأصناف الأفعال الكلامية تحت قسمين، يوضحهما المخطط التالي:

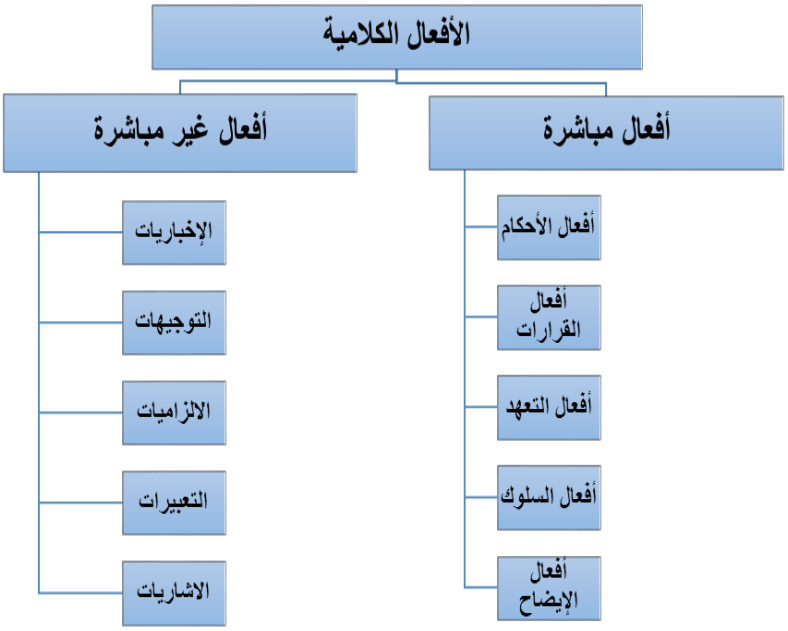

مخطط توضيحي لأقسام الأفعال الكلامية عند سيرل

١) السابق، ص٢٥.

١-الأفعال المباشرة[١]:

ويقصد بها الأقوال التي تؤدي معنى مباشرا يتطابق ومبدأ القصدية دون تأويل أو مجاز، فهي كل فعل دل على معناه الموضوع له. ثمة خمسة ضروب من الأفعال تشكل الفعل المباشر، هي:

١-١-أفعال الأحكام: وهي كل فعلٍ تقريري قُصد به إطلاق أحكام على الواقع كالتي نجدها في دلالة الفعل: يحكم، يرى، يعيّن...

١-٢-أفعال القرارات: وهي كل فعل حملت دلالته إصدار قرار سلطوي، كالتي نجدها في دلالة الفعل: حرم، أباح، أمر، نهى....

١-٣-أفعال التعهد: وهي تلك الأفعال التي تعطي دلالة الإلزام والوجوب بأداء فعل ما، كما في دلالة الفعل: عقد، نوى، وعد....

١-٤-أفعال السلوك: وهي الأفعال التي تعكس مشاعر المرسل النفسية وردود أفعاله تجاه الآخرين، كـ أعتذر، أندم، أشكر...

١-٥-أفعال الإيضاح والتبيين: وهي التي تستعمل في الحوار أو المحادثات والمناقشات؛ لتوضيح وجهات النظر مع ذكر الحجة أو الاعتراض، كالتي نجدها في الفعل: أجاب، سأل، أنكر، أثبت...

٢-الأفعال غير المباشرة[٢]:

ويقصد بها الأفعال مجازية الدلالة، والتي تشبه الكناية في بلاغتنا العربية؛ فهي عبارة عن "انتقال المعنى الحقيقي إلى آخر مجازي، وتحتاج إلى تأويل لإظهار قصدها الإنجازي كالاستعارة المكنية؛ إذ تجبر المستمع على الانتقال من المعنى الحقيقي إلى المعنى الذي يسنده المتكلم إلى قوله"[٣]. ويمكن تقسيمها إلى خمسة فروع، هي:

---

١) راجع: الجيلالي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة: محمد يحي، الجزائر، ١٩٩٢م، ص٢٢.

٢) راجع: الجيلالي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، م.س، ص٢٤.

٣) السابق، ص٢٩.

٢-١-الإخباريات: وهي التي تصف واقعة معينة من خلال قضية ما، كما أنها تحتمل الصدق والكذب من حيث مطابقتها للعالم الخارجي، والإخباريات تنقل صورا عن الحالة النفسية، كـ دُهش، تفاجأ، غضب، اغتبط...

٢-٢-التوجيهات: وهي أفعال تحمل المخاطب على أداء فعل أو إنجاز عمل، كأفعال الأمر، والنهي، والرجاء.

٢-٣-الالتزاميات: وهي التي تعطي دلالة الإلزام بالقيام بعمل ما في زمن المستقبل، كـ سنرحل، سنخرج، سأنام...

٢-٤-التعبيريات: وهي التي تعبر عن الحالات النفسية والانفعالية تجاه الوقائع الخاصة، مثل العزاء والتهنئة والاعتذار والترحيب.

٢-٥-الإشاريات: وتعد أهم وأخطر عناصر الفعل الكلامي غير المباشر؛ إذ تحمل أدوات الربط بين عناصر الجملة، وتهتم بالجوانب النحوية والصرفية والدلالية فيها، وقد لقيت عناية من علماء التداولية؛ حيث اعتبروا "أن النص يتألف من عدد من العناصر تقيم فيما بينها شبكة من العلاقات الداخلية تعمل على خلق نوع من التماسك والانسجام، وتهتم بالروابط الزمنية والإحالية والتركيبية في تحقيقها"[١].

لعلنا نخرج من العرض السابق بنتيجة مؤداها أن التداولية تصب اهتمامها على المتكلم والسامع؛ باعتبارهما أهم عنصرين من عناصر عملية التواصل، فالمتكلم مصدر انجاز الفعل، والمستمع مستقبِل له. ولا يعني هذا أن نجاح الفعل اللغوي يتحقق بحضور المتكلم والسامع فقط، وإنما لابد من إدراك الظروف التي تحيط بالفعل أيضا. ولو تتبعنا دلالة هذه الأفعال لوجدناها تكشف لنا عن مقصدية المؤلف وميله إلى إظهار قدرته الموسوعية في الحقول الدلالية، ومدى معرفته وثقافته اللغوية والدينية.

١) محمود نخلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، م.س، ص٧٩-٨٠.

المبحث الثاني

الأفعال الكلامية في رواية زرايب العبيد

تتمحور نظرية الأفعال الكلامية في تجسيد الاستعمالات اللغوية في الواقع، فهي أفعال تحمل دلالة الإنجاز بلفظها في سياق ما، وتتسع دائرة الفل الكلامي لتشمل كل لفظ بلاغي أو إنجازي أو تأثيري يعد جسرا بين المرسل والمرسل إليه، وكل فعل يعبر عن كوامن النفس خفية كانت أو جلية، قولية كانت أو فعلية، فموضوعها الخطاب وليس اللفظة المفردة أو الجملة المركبة؛ فـ "الاستعمال اللغوي ليس إبراز منطوق لغوي فقط، بل إنجاز حدث اجتماعي معين في الوقت نفسه."[١]

نسعى في هذا المبحث إلى توظيف نظرية الأفعال الكلامية وتطبيقها بالتحليل على الخطاب السردي في رواية (زرايب العبيد) التي نحن بصدد دراستها، ونشير إلى أننا نسعى إلى الوقوف على أهم الأفعال الكلامية والملفوظات التي تعكس القوة الإنجازية الحرفية أو المُستلزمة لهذه الأفعال داخل السياق التداولي، معتمدين على جهود (سيرل) في دراسة تمظهر الفعل الكلامي، وقوته الإنجازية، وما يلعبه من دور دلالي تداولي في السياق السردي؛ باعتبارها الصورة المُثلى لفهم وظيفة الفعل الكلامي في عملية التواصل الخطابي.

يرى سيرل أن الفعل الكلامي ذو دور تأثيري في عملية التواصل السردي؛ إذ له القدرة على تغيير وضعية المرسل، وإعادة توجيه دلالة خطابه وقصديته، "فكلما أدى الفرد فعلا كلاميا فإنه يُعبر بذلك عن حالة نفسية تجاه القضية المعبر عنها، فمن يقرر فهو يعبر عن اعتقاد، ومن يعد فهو يعبر عن

١) فان ديك: علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة:محمد سعيد البحيري، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م، ص١٨.

نية، ومن يصدر أمرا فهو يعبر عن رغبة أو إرادة"[١]. يقسم (سيرل) الفعل الكلامي إلى أفعال إنجازية مباشرة، وأفعال إنجازية غير مباشر.

١-الأفعال الكلامية المباشرة:

تتمثل الأفعال المباشرة عند (سيرل) في الملفوظات التي يتطابق معناها ومعنى القول، بمعنى أن كل فعل تطابق نطقه حرفيا وقصدية المتكلم هو فعل مباشر، وعليه فالأفعال المباشرة "هي الحالات التي يمكن للمتكلم التلفظ بقول ما، ويُراد منه ما صرح به."[٢]

١-١-أفعال الأحكام:

يتمثل دور أفعال الأحكام في عملية التواصل في نقل خطاب المرسل مطابقا لواقع التعبير، فهي أفعال تنقل الواقع وتصفه وصفا مباشرا على أصل استعمالها، وقد ترد هذه الأفعال مثبتة أو منفية؛ تفيد المرسل إليه خبرا لا يحتمل التأويل، تؤدي غرضا إنجازيا، هو "التقرير"، ويكثر هذا النوع من الأفعال في البنية السردية للرواية (زرايب العبيد)، لاسيما تلك الأفعال الصادرة عن صوت الراوي، كقولها في مطلع الرواية: " قال صبي لأمه في أحد هاتيك البيوت: "هناك رجل كبير يقف بالباب يريدك" فاستغربت الأم مجيء رجل إلى بيتهم لا يعرفه ابنها. المرضي والغرباء يقابلهم زوجها دائما في دكانه. كان صباح يوم أحد، وكانت مشغولة بالطبخ، فيما زوجها جالس في باحة البيت يدخن غليونة ويقرأ كتابا، وأحيانا يضع الكتاب جانبا ويلاعب طفلة صغيرة سمراء تبدو كحفيدته"[٣]، تؤدي الأفعال في المقطّعة السابقة وصفا واقعيا للقاء الأول بين (علي بن شتوان) بـ (عتيقة بنت تعويضة خادمة الحاج امحمد بن عبدالكبير بن علي بن شتوان)، وهذا الوصف الصادق من السارد يتطلب أفعالا مباشرة، تنجز الحدث، أفعالا إنجازية تفيد التقرير والوصف: (يقف،

١) عمر بلخير: التناول التداولي للخطاب الأدبي، مجلة القصة، ع٢٠، ١٩٩٩م، ص٧٠.

٢) محمود نخلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، م.س، ص٢٠٤.

٣) نجوى بن شتوان: زرايب العبيد، دار السافي، بيروت، لبنان، ط١،٢٠١٦م، ص٧.

يريدك، استغربت، يقابلهم، يدخن، يقرأ...)، وهي أفعال لا تبلغ المتلقي أكثر مما يُقال، ولذا نجدها تحمل بعدا تداوليا يتمثل في رد فعل المتلقي الذي لن يبذل جهدا في تصريف الفعل إلى غير وجهه، وإنما يكتفي بالتصور واستحضار الصورة التي تبلغها دلالة الفعل. نطالع في موضع آخر من الرواية قول الساردة: "قريبا من شارع تفاحة رأيت امرأة ترتدي ملابس الأعراس في غير ما وجود لعرس، تقف بعتبة باب من أبواب (بوخوخة)، تمضغ اللبان وتتبرج أمام المارة، وكانت طفلة بيضاء بمدخل الشارع تتفحصها في خوف وحذر، بينما تحثها المرأة على المجيء إليها ملوحة لها بقطعة من حلوى (البامبيلاء)"[١]، الأفعال في المقطّعة ليست بمنأى عن واقعها اللغوي، بل متساوقة مع واقعية الخطاب وإدراك السامع؛ فالسارد اعتمد على تكنيك الذكريات في سرد أحداث الرواية، وهو ما دفعه إلى توظيف أفعال مباشرة تفيد أحكاما تقريرية عن الحياة الأولى لـ (عتيقة) في كنف أمها (تعويضة)، وتنقلهما بين بيوت المدينة؛ خدمة في البيوت جنيا لقوت يومهما، ووصفا لتفاصيل الشوارع وهيئة قاطنيها، ولذا جاءت الأفعال (رأيت، ترتدي، تقف، تمضغ، تتبرج، تتفحصها...) تفيد إنجاز الوصف، وتفيد علم المخاطب مراعية كسب تصديق المخاطب باعتباره الطرف الأهم في الخطاب؛ فـ "المخاطب أساس في استمرار التفاهم والاتصال بين المخاطب والمتكلم لذا لا يستطيع المتكلم أن يجعل كلامه في منأى عن إدراك المخاطب وفهمه؛ فهو لا يستطيع الاستمرار في الكلام من غير معرفة بالظروف الاجتماعية والنفسية للمخاطب"[٢]، وهو ما يعني ضرورة مراعاة العلاقة التي تربط المرسل بالمرسل إليه أثناء الخطاب؛ فـ "هي الفيصل المهم والغاية الأساسية التي تنظم النصوص اللغوية"[٣]

١) السابق، ص١٤٧-١٤٨.

٢) بان الخفاجي: مراعاة المخاطب في النحو العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٨م، ص٥٩.

٣) السابق، ص١١٥.

١-٢-أفعال القرارات:

تؤدي أفعال القرارات أو الممارسات دورا إنجازيا يتجسد في إصدار الأحكام أو الإلزام بأمور طلبية مباشرة تحمل المخاطب على أدائها. تبرز دلالة هذا النوع من الأفعال في الغرض الإنجازي لأفعال (الشوشانة)[١] وهي تتفحص عذرية (رابحة): "ونزعت ملابس العروس المرتجفة وكأن الأمر يعنيها هي...حتى عندما صارت في تمام العري، قالت لها:

- قفي على شقفة المرآة وافتحي ساقيك جيدا وانظري إلى رأس القط في المرآة.

للم تفهم البنت، فسألت الشوشانه بارتباك عما يكون رأس القط، وأين تجده؟

حينها ارتفع معدل (البوري) في عروق الشوشانه، فشدتها من عورتها، فأنّت البنت وعرفت القطّ كاملا.

- ها هو، هل عرفته الآن؟

وقفت البنت في خوف وإحدى يديها تستر صدرها والأخرى تستر عورتها. قالت لها: "انظري جيدا، انظري إليه في المرآة وارفعي يدك عنه..."[٢]، تمثل أفعال القرارات (قفي، افتحي، انظري، ارفعي) دورا إنجازيا يحمل العروس على أدائها، وهي مطابقة في دلالتها للوقائع الموجودة في العالم الخارجي، ومثل هذا نلمسه في قرارات (زوج عتيقة): "اذهبي وانظري، ربما كان مرسلا من المستوصف أو الإرسالية)[٣]، الغرض من الفعلين في المقطعة السابق هو حمل (عتيقة) على الاستجابة لنداء السائل على باب بيتها (علي بن شتوان)، والغرض الإنجازي هنا مباشر لا يحتمل التأويل، ومثل ذلك

١) الشوشانه (والذكر شوشان) : تسمية كانت تطلق على العبد المولد من أبوين رقيق، وصارت اسما فيما بعد.

٢) زرايب العبيد، ص٥٥-٥٦.

٣) السابق، ص٨.

الأفعال المباشرة في حديث تعويضة عن ليلة ساحرة مع سيدها: "أحضر لها هدايا من بينها فستان من الساتان الأحمر، قال لها:

-تقدمي ألبسك إياه.

تضاحكا وهي تقول له:

-هل تلبسني أم تلمسني؟ الفستان ليس به شيء يعطل مثوله على جسدي إلا البروز القليل لبطني.

-هذه ليلة يطيب فيها الشراب والرقص والغناء والحب والدلال إلى مالا نهاية. خذي الحزام واحتزمي وارقصي."[١]، فالحمولة الإنجازية هنا تتجسد في أفعال الطلب (تقدمي، خذي، احتزمي، ارقصي)، هذه الأفعال تحمل دلالة الأمر المباشر، فمحتواها القضوي يكمن في دلالتها التوجيهية الطلبية عند التلفظ بها.

١-٣-أفعال التعهد:

يلتزم المرسل في هذا النوع من الأفعال بالقيام بعمل ما في المستقبل على سبيل الوجوب، ويكون المرسل (صاحب التوجيه) متلقيا لإلزامه، مشتركا في استقبال تعهده مع المرسل إليه، ملزما نفسه بإنجاز الفعل. ويندر تمثل هذا النوع من الأفعال في روايتنا، مثل ذلك ما تعهدت به (صبرية) عمة تعويضة للشوشانه عندما طلبت إليها تصفيح ابنة أخيها اليتيمة (تعويضة): "قالت لعمتي ولي دون أن تنظر إلى وجهينا:

-من أجل عيني اسقاوه شأُصفحها. طيلة حياتي لم أقفل خادم.

-أطال الله عمرك وحفظك أنتِ واسقاوه. إنها بنت يتيمة ولكِ أجرها.

انكفأت عمتي على يد للاهم وعلى ضمادة رأسها بالتقبيل... قائلة لاسقاوه الضخمة:

-هاتي إن تبقى لدينا تمر.

---

١) السابق، ص١٩٨.

-ثم وجهت تهديدا طفيفا إلي وعينها على عمتي:
-إياكِ أن يسمع أحد، سيعاقبني الأسياد إن سمعوا أنني أقفل الخدم.
وشوشت الشوشانه عمتي شيئا وكأنه من وراء ظهر العجوز التقطتُ منه:
-إياك أن تخبري أحدا.
-لن يسمع بها مخلوق"[١]

يأتي فعل الالتزام في المقطّعة السابقة متمثلا في تعهد العمة العجوز (لن يسمع بها مخلوق)، فالمتكلم هو نفسه المتعهد بالتزامه ووعده، يقصد بتعهده التأثير على السامع لانجاز الفعل؛ فالعمة (صبرية) تتعهد بالتزام الصمت وعدم البوح بما جرى وما كان من أمر (الشوشانه) التي قبلت تقفيل خادمة من السود (تعويضة) على غير ما تريده عادات البيض وأعرافهم؛ فلربما نكلوا بها إن عرفوا من تجرؤها على عصيان طبائعهم، ودفع (صبرية) لهذا التعهد رغبتها في إنجاز التقفيل لابنة اخيها (تعويضة)؛ حرزا وحصنا لها من رغبة العبد (امجاور) فيها وسعيه وراء جسدها.

١ – ٤ –أفعال السلوك:

يسمى هذا النوع من الأفعال بالاختصاصيات؛ فالغرض منه التعبير عن الحالة النفسية والسيكولوجية للمرسل تجاه الأفعال وردود الأفعال المحيطة، وينجز فعلا تأثيرا لدى المرسل إليه، يترك انطباعا عن حالة الفاعل المزاجية؛ من أجل التفاعل ومشاركة الحدث، ومثل هذا نجده في الفعل السلوكي للعمة (صبرية) حين باعت ابنها (مفتاح) لسيدة من العوائل البنغازية، نطالع: "كنت حزينة لفعلتها وكرهتها سرا.

لم يكن مفتاح راغبا في الذهاب مع السيدة، لكنه لم يتكلم ولم يعترض، كانت عيناه تنطقان فيما عمتي صبرية تقنعه، كأنه مثّل أمامها أنه اقتنع إرضاء لها فقط، لكنه في حقيقته لم يحمل في قلبه لتلك الخطوة سوى الرفض.

١) زرايب العبيد، ص٦٢-٦٣.

لم يعجبني ما فعلته عمتي صبرية على الإطلاق، غضبت منها غضبا شديدا، وقلت لها إنني لن أحبها كثيرا، حتى لا يأتي يوم وتبيعني فيه كما باعت مفتاح.

رغم ذلك أعتقد أنها تألمت مثلي في ليلة مفتاح الأولى خارج الزرايب. كنت أبكي وأفتقده بينما هي تطرق واجمة.."[١]، تمنح الأفعال (كنت حزينة، كرهتها، لم يتكلم، لم يعترض، لم يعجبني، غضبت، لن أحبها، تألمت، كنت أبكي، أفتقده) الحدث إيقاعات واقعية للحالة النفسية التي تعيشها شخصيات الحدث (العمة صبرية، ابنها مفتاحا، ابنة أخيها تعويضة)؛ فعادة الخدم السود جرت ببيع أولادهن جلبا للمال، ودفعا لغول الفقر والعوز، وليس كبيع الأب أو الأم ولده!

تنجز هذه الأفعال تأثيرا مباشرا في المتلقي بواقعيتها ودلالتها المباشرة، وارتباطها بالعالم الداخلي للنفس والعاطفة، ولذا فهي أسرع أفعال الكلام إنجازا للفعل وأشدها تأثيرا في المخاطب.

يبدو الدور الدلالي لأفعال السلوك المباشرة قويا في سرد (عتيقة) لأحداث الطاعون الذي ضرب الزرايب وبنغازي كلها وما خلفه من آثار دفعت الصليب الأحمر لإضرام النيران في الجثث والشوارع والبيوت، تقول: "كانت عمتي عيده مصدومة مثلي. في لحظة بدا فيها الجميع وكأنهم يحترقون فعلا. تيقنت من شيء ما بدأت تحثني عليه:

-ابكِ المرأة التي لن تعود. ابكِ أمكِ، ابكِ أمكِ، ابكِ أمكِ.

-تعويضة أمكِ، أمكِ وليست عمتكِ..

صرت يتيمة، فقدت جذري في الحياة في اللحظة التي عرفت وأنا أفقدها أنها كانت أمي طيلة العمر وليست عمتي."[٢]

١) زرايب العبيد، ص٨٢،٨٣.

٢) زاريب العبيد،ص١٧٦-١٦٨.

تتضافر سيكولوجية الفزع الناجم عن فقدان (عتيقة) أمها محروقة أمام عينيها، وعجزها عن نجدتها، مع شعور الفقد الذي يفرض نفسه عليها في اللحظة نفسها، في إشباع دلالة رد فعلها المتجسد في الفعل (صرت يتيمة، فقدت جذري)، ويعزز هذه الدلالة السلوكية مجيء الفعل مركبا في سياقه؛ ليصبح الفعل مظهرا من مظاهر تحقق الحدث، ويكتمل دوره التبليغي في تحقيق التواصل، والتأثير على المخاطب، فتحقق المعنى –كما يرى (فيرث) لا يكتمل إلا بالسياق؛ إذ إن الكلمة "ليست بذات معنى مستقل قائم بذاته، ووجودها ومعناها شيء نسبي، يمكن ملاحظة كل منهما في سياق غيرها من الكلمات والمعاني،أو عن طريق التقابل بينهما، ولهذا فإن ما تدل عليه الكلمة ينحصر في وظيفتها التي لا تعرف إلا بمعرفة وظائف غيرها من الكلمات"[١]

١–٥–أفعال الإيضاح والتبيين:

تقوم أفعال الإيضاح أو العرضيات بدور إنجازي يتمثل في إزالة ضبابية وجهة نظر المتحدث، وبيان رأيه، وتبرز قيمتها التداولية في النقاشات الحوارية، كالتي نجدها في حوار محمد بن شتوان وتعويضة، وكان قد استيقظ من نومه ليجد نفسه في حجرة خادمته:

"مرت لحظات لم يعرف ما يقول لها، ربما اعتقد أنه لما ثمل ليلة أمس نام مع الخادمة وخشي أن يكون ذلك قد وقع حقا. سألها متجهما:

-ماذا حدث البارحة؟

قالت:

-لا شيء يا سيدي. كنت تقع في المطر وأنا أدخلتك.

أطرق صامتا ثم سألها:

-أين نمتِ؟

-لم أنم؟

١) حلمي خليل: الكلمة (دراسة لغوية معجمية) ، دار المعرفة الجامعية، ط٢، ١٩٩٨م، ص٩٥.

-لماذا؟

-جلست الليل كله عند الباب.

-ولماذا؟

-لأنك نمت مكاني.

سكت مجددا وكان يبحث عن شيء يقوله.

-من أنتِ؟

-خادمتك.

-ما اسمكِ؟

-تعويضة ياسيدي"[١]

تؤدي الأفعال السابقة دورا إنجازيا محوريا يمثّل حمولة دلالية إيضاحية تجلي غموض الموقف؛ فموقعية أفعال (كنت تقع، أدخلتك، جلست، نمت) في سياق خطاب (تعويضة) يزيل ضبابية الحدث، وينفي شكّ سيدها (محمد بن شتوان)، الذي أفاق محاطا بهالة من الخوف أن يكون نام مع إحدى خادماته. وفي المقابل فإن هذه الأفعال تعد صفرا دون سياقها؛ إذ لا تتكشف قيمتها التداولية الحرفية أو الإنجازية إلا بانسجامها في مع غيرها في السياق؛ فـ "السياق وحده يوجه دلالات الكلمات ذوات المعاني المركزية الثابتة"[٢]، وهو ما يعني أن أفعال العرضيات لا تكتسب قيمتها التداولية معزولة عن سياقها الحجاجي الذي تُنظم فيه.

نطالع تداولية هذه الأفعال في نموذج آخر من الرواية، حيث الحوار الدائر بين (الحاج امحمد الكبير، والفقي): "التقى الحاج امحمد الكبير بالفقي ودار بينهما حديث يومي عن حال السوق والمدينة، كان يجلسان على حصير الجامع بعد انقضاء الصلاة، صارحه قائلا:

---

١) زرايب العبيد، ص١٧٩-١٨٠.

٢) ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال بشر، مكتبة الشهاب، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٨٦م، ص٦٩.

-لدي مشكلة في البيت يا شيخ.
-قل ما الأمر؟
-ولدي الكبير، عشق خادمته وبسببها أهمل زوجته ولم يعد يعطيها حقوقها.
-طيش شباب وسيعقل. انصحوه.
-كلمناه، نصحناه، دون جدوى. زوجته اشتكت منه للحاجة، يعيشان معا مثل الأخوة.
-ألا يفعل شيئا؟
-لا.
-لا القليل ولا الكثير؟
-لا القليل ولا الكثير ياشيخ.
... اعتدل الفقي في جلسته ومسح على لحيته، ثم أردف قائلا:
-أفضل حل، بع الجارية بمجرد أن يسافر في تجارة.
-أين يسافر وقد عاد للتو بعد غياب أشهر؟
-ليس ضروريا أن يستمر في تجارة القوافل، ها هي السفن تذهب وتجيء من مالطا...
لمعت عينا الحاج امحمد:
-كيف؟
-أرسله في بابور الصوف والشعير، سيرحل بعد يومين، أخبرني عنه الريّس علي الرياني أول أمس..."[1]

تترسم معالم الفعل الكلام في نسق الحوار القائم على الاستفهام وجوابه؛ ليهيئ الذهن –المتطلع إلى الفهم– لاستقبال الخبر، وتكمن قيمة الفعل التداولية في دلالته التي تبرز خطورة الموقف الذي وضع أكبر الأبناء أسرته الثرية فيه حين عشق خادمة سوداء، ما يعد خروجا على الأعراف والعادات السائدة، وفي

١) زرايب العبيد، ص٢٣١-٢٣٢.

المقابل يحاول رب الأسرة إيجاد مخرج لهذه الفضيحة التي تلاحق كيان الأسرة ومكانتها الاجتماعية، فدلالة الفعل (صارحه) في صدر المقطّعة تمثل إزاحة الستار عن المسكوت عنه، في حين أن الفعل (قل) يحمل قوة إنجازية مباشرة تتمثل في الإذن للحدث بالعرض، وقوة مستلزمة تتمثل في جهل المخاطب بالخبر، وتتسق بقية الأفعال (عشق، أهمل، لم يعد يعطيها، سيغقل، انصحوه، كلمناه، نصحناه، اشتكت...) في سياق السرد مشكّلة ركائز ينجلى بدلالتها غموض الخبر، وتتكشف ملابساته.

٢-الأفعال الكلامية غير المباشرة:

يرمي المتكلم -أحيانا- إلى معنى غير مباشر في لفظه، فيوحي به من خلال فعل يحتمل دلالتين، إحداهما مباشرة مهملة، والأخرى غير مباشرة مقصودة، وهذا ما أطلق عليه (غرايس) الاستلزام التخاطبي، الذي "هو عمل المعنى أو لزوم شيء عن طريق قول شيء آخر، أو قل إنه شيء يعنيه المتكلم ويوحي به، ويقترحه ولا يكون جزءا مما تعنيه الجملة بصورة حرفية"[١]، وهنا تزداد حاجة المخاطب إلى القرائن السياقية؛ لفهم الافتراض التداولي والقول المضمر. وتتجسد الأفعال غير المباشرة في رواية (زرايب العبيد) في خمسة ضروب، هي:

٢-١-الإخباريات:

يخرج الفعل غير المباشر في طوره الإخباري عن كينونة الشكل الدلالي الإنجازي التأثيري إلى تحقيق غرض إنجازي بلاغي، وغاية تأثيرية؛ ففي الآن الذي يقدم فيه خبرا يحمل في جوهره معيار الصدق والكذب، يقوم بوظيفته تأويلية تجعل منه فعلا مشبّعا بالدلالات المغايرة غير الملفوظ بها صراحة، والتي تتبلور في الاستلزام الخاطبي للفعل، ومثل ذلك يتضح في التقرير السردي للراوي: "القاع مليء بما تعجز عتيقة عن وصفه... عيناها اللوزيتان

١) صلاح إسماعيل: نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس، الدار المصرية السعودية للطباعة، القاهرة، مصر، ٢٠٠٥م، ص٧٨.

تختصران بصمت حكاية حب الأمَة البائسة لسيدها، تتكفئ بهما على مساعدة طبيب الإرسالية. تُمرّض الأطفال والنساء بالدرجة الأولى، ونادرا ما تتكلم مع أحد. يوازي ذلك الصمت حديث طويل مع الروح عن قلق الهوية ما بين لونين: جلد أسمر وعينان لوزيتان وحزن ليس له انتماء إلى دم محدد"[1]، وظفت السارة أفعال (تعجز، تختصران، تتكفئ، يوازي) بمحتوى إسنادي مغاير؛ إذ نظمتها في سياق نقلها من المعنى الصريح إلى المستلزم الخطابي، فالقوة الإنجازية للفعل (تعجز) تتخطى مباشرة العجز وعدم القدرة إلى ثقل الهموم المتراكمة على كاهل (عتيقة بنت تعويضة) وما خلفته نوائب الدهر من بتر العلاقات الأسرية، وعنصرية اللون، ونبذ المجتمع للعبيد السُّود، وغيرها من تراكمات اُختزلت في تداولية هذا الفعل. كذلك، الفعل (تختصران) الذي يوحي بمرارة الكلام على شفتيها اللتان اكتفتا بالصمت؛ لعجز الكلمات عن البوح، وفقدان الأمل في قدرة الكلمة على التعبير. تعكس دلالة الفعل (تتكفئ) وقوته الإنجازية استلزاما خطابيا يصور انحناء ظهر العبدة (عتيقة) التي قنعت من حياتها بمساعدة طبيب الإرسالية في تمريض الأطفال والنساء؛ كسبا لقوت يومها، وتوفير احتياجاتها، في حين يحمل الفعل (يوازي) استلزاما خطابيا يعكس صورة الحياة الموازية التي تمارسها في عالمها النفسي، بعيدا عن صخب الحياة وضوضاء الأحياء، بيد أنها حياة يكدر صفوها الصراع النفسي بين الحرية المتوطنة عينيها، والعبودية القابعة في لون بشرتها السوداء.

٢-٢-التوجيهات: يتعدى الفعل هنا مقتضاه القضوي التوجيهي إلى حمولة دلالية مستلزمة، تختلف باختلاف السلطة بين المتكلم والمخاطب، وتتحدد هذه الدلالة لا بالمدلول الموضوع له، بل بقصد المتكلم والمقام، ويدخل في هذا الضرب كل أنواع الطلب من أمر ونهي وعرض وتحضيض...، ومثل ذلك نلمسه في الحوار بين (العمة

١) زرايب العبيد، ص١٢.

صبرية) و (مفتاح): "يصمتان مليا وتتثاءب عمتي صبرية وتستغفر الله قائلة لمفتاح:

-اطلب لهم الرحمة. عام الفيضان مات أنس كثر.

فيرفع كفيه المتعبتين من تكسير الملح إلى السماء وهو مستلق على ظهره ويردد بقلب خاشع:

-يارب ارحمهم واجعل الجنة مكانهم."[١]

تتعدى دلالة الفعل المضارع (تستغفر) حيز الحدث المغلف بالاستمرارية وتجدد الحدث في طلب المغفرة إلى استرجاع الذكريات؛ حيث الطوفان الذي اجتاح الزرايب، فأهلك منها خلق كثير، كان فيهم (أم مفتاح) وغيرها، ويختزل فعل الأمر (اطلب) دلالة إنهاء الحوار، وإسدال الستار عن هذه اللوحة البائسة من تاريخ الزرايب، ومعاناة العبيد السود، كما يتجاوز الفعلان (ارحمهم- اجعل) دلالة الأمر إلى قوة إنجازية مستلزمة متمثلة في تماثل المخاطب وانصياعه لأمر المتكلم.

٢-٣-الالزاميات: تتضافر المورفيمات الخاصة كسين التسويف، مع العلاقات التنغيمية والمحتوى الإسنادي في تحقيق القوة الإنجازية لفعل الإلزاميات غير المباشر، والذي من خلاله يستطيع المتكلم التعبير عن قصده وفق شكل الفعل الدلالي وتوافقه السياقي، ومثل ذلك نجده في الحوارالتالي:

علمتني عمتي صبرية أن أشكره بتقبيل رأسه، حتى وإن كنت لا أحبذ استفزاز الأخ لأخته بقوله لي "ياسويده".

يضحك معلقا:

-طيب، سأناديك "فارينا"، وناديني "اعبيدي"[٢]

١) زرايب العبيد، ص٨١-٨٢.

٢) زرايب العبيد، ص٧٩.

يمثل الفعل (سأناديك) فعلا إلزاميا، يؤدي قوة إنجازية حرفية تنبض من ألفاظه التي تواضعت على بنائها اللغة؛ حيث دلالة التسمية المرتبطة بالمستقبل، وقوة مستلزمة خارجة عن تلك الدلالة الظاهرة؛ حيث تشع أغراضا بلاغية تتمثل في إلزام المتكلم نفسه بإنجاز الفعل في جو من الألفة والمرح (سأناديك فارينا)، ومثل ذلك نلمسه في الحوار بين "تعويضة" و"محمد الصغير بن شتوان":

سكتت وضغطت كفه التي تمسك يدها.

-هل تجيدين صنع الحنة؟

-إيه، نعم!

-إذن سأجلب لك كيسا منها"[1]

الفعل الكلامي (سأجلب) يجسد الإلزام والقيام بالحدث، بينما تكمن دلالته الإنجازية الحرفية في حرف التسويف الذي يمثل الزمن المستقبلي، وتبقى قوته الإنجازية المستلزمة متمثلة في إظهار الود والحنان لتعويضة، تلك المعشوقة السوداء.

٢-٤-التعبيريات: وهي التي تعبر عن الحالات النفسية والانفعالية تجاه الوقائع الخاصة، مثل العزاء والتهنئة والاعتذار والترحيب.

يعد الفعل التعبيري غير المباشر ذا أهمية تداولية تفوق ما عداها من الأفعال الكلامية؛ فمن خلاله يستطيع المتكلم قول ما يعجز القلم عن النطق به؛ كما أن قوته الإنجازية المستلزمة تفوق نظيرتها في سواه، كالذي نلمسه في الحوار التالي:

"حاولت فاطمة صرف والدتها عن متابعة الخادمة وحملها قائلة لها:

١) السابق، ص١٩٠.

-حتى إن كان ما تقويلنه صحيحا عن أن محمد هو والد الطفل، أرجو أن تتركيه له.

فتغضب اللالاعويشينه وتحتج:

-لا لن يكون، ولد أمه شوشانه، ومحمد لديه زوجة مثل البدر، كما أنجبت له الإناث تستطيع إنجاب الذكور.

-لا تسقيها يا أمي برحمة تراب قبر جدي وجدتي. متلهفون نحن لذكر يحمل اسم العائلة، ربما كان الحمل ذكرا. دعيه.

-مستحيل أن يحمل اسم العائلة ابن جارية سوداء، هذا ما لن نسمح به"[١]

تؤدي الأفعال الكلامية (تغضب، تحتج، متلهفون، مستحيل) قوة إنجازية مستلزمة غنية بالدلالات والتعبيرات النفسية المتوافقة والمتناقضة، كعبس الوجه، وتقضيب العينين، والاحتجاج برفض اللالاعويشينه لحمل تعويضة من ابنها محمد الصغير، وتجسد أفعال الرفض شتى أشكال الإصرار على عدم الاعتراف بالجنين، بل وضرورة التخلص منه، فانتساب طفل من نسل العبدة الخادمة إلى عائلة شتوان ضرب من المستحيل، كما تشع دلالة اللهفة والشوق التي تبديها فاطمة بنت شتوان لاستقبال الطفل نفسه، عساه يكون ولدا يخلد ذكر اسم أبيه.

ومثل ذلك الحوار بين (علي بن محمد الصغير) و (سالم): "نظر إليه بحدة ولم يجبه. وضع العبد يده اليسرى دون أن يرتجف له جفن. كانت عينا علي تذهبان بين خاله وبين العبد في ارتياب. قال الخال بصوت صارم:

-إن وضعت يدا على تعويضة، سأقطع لك الاثنتين.

١) زرايب العبيد، ص٢٠٢.

ثم بسرعة خاطفة سحب الساطور من تحت المصطبة وجره على يد العبد فأحدث فيها جرحا عاجلا. نظر العبد وجلا إلى دمه على الساطور ولم يفهم ما يعنيه أمر السيد له، سكت برهة ولم يحزك يده من مكانها ثم نبس:

-أمرك سيدي.

-وإياك أن تتكلم بما حدث لحد، حينها لن تلوم إلا نفسك."[1]

يتشكل الفعل الكلامي (نظر إليه بحدة) من قوة حرفية تتمثل في ركني الجملة الفعلية ومتعلقها الجار والمجرور، والتي تبدو نمطية خارج السياق، بينما تتجلى قوتها المستلزمة فيما تحملة من دلالة التهديد والوعيد للمخاطب، والتي تزداد حدتها بتآلفها السياقي مع الفعل الكلامي (ولم يجبه)، وهي القوة نفسها الكامنة في الفعل (سأقطع لك الاثنين) الذي يتعدى قوته الحرفية إلى أخرى انجازية مستلزمة تعكس سلطة الأسياد على الخدم العبيد.

١) زرايب العبيد، ص٢١٤.

الخاتمة

تبحث التداولية كنظرية أدبية ومنهج نقدي في أنماط الاستعمال اللغوي، والعلاقات التي تحكم العملية التواصلية بين المتكلم والمخاطب، متخذة من الفعل الكلامي قناة لربط هذه العلاقة بين أطراف ثلاثة، هي: المرسل والمرسل إليه والسياق الكلامي.

تهتم التداولية في المقام الأول بالكلمة ومقامها في النص، وعلاقاتها اللغوية داخل السياق، ولذا فموضوعها يتمثل فيما يقصده المتكلم، وتحديد ما يقوله، وما تحكيه كلماته والبعد النسبي بين ما يقال وما لم يتم البوح به، وما بين السطور من معان ودلالات غير مرئية، والمعنى السياقي.

للسياق أهمية عظمى في النظرية التداولية؛ فمن خلاله تتشكل دلالة الفعل الكلامي، والمسار الذي تسكله عملية التواصل بين المرسل والمخاطب، ومن خلاله يمكن الحكم على نسبة نجاح العمل الأدبي باعتباره المؤسس لمقتضى الخطاب وسيمائية التواصل، ولا يمكن فهم النص إلا من خلاله.

للتداولية ثلاثة مراتب، يحتل الفعل الكلامي ثالثها وأكثرها تعقيدا وأهمية في الوقت نفسه، بل والنواة المركزية للأعمال التداولية؛ باعتباره يشمل كل ملفوظ ينهض بدلالة إنجازية تأثيرية يتوسل بها المرسل إلى تحقيق غرض إنجازي دلالي، ولذا يدخل في بابه كل فعل إخباري كان أو إنشائي.

تنقسم الأفعال الكلامية –حسب تصنيف سيرل– إلى أفعال مباشرة، وغير مباشرة؛ تشمل الأولى أفعال الأحكام، والقرارات، والتعهد، والسلوك، وأفعال الإيضاح. في حين يدخل في باب القسم الثاني أفعال الإخباريات، والتوجيهات، والالزاميات، والتعبيرات، وأفعال الإشاريات.

نجحت الروائية الليبية (نجوى بن شتوان) في توظيف الفعل الكلامي في روايتها (زرايب العبيد) بشكل مثالي؛ فقد جاءت لغتها محملة بكم هائل من الأفعال الكلامية التي تؤثر في المخاطب بأغراضها الإنجازية والمباشرة وغير

المباشرة، والتي تتجلى أهميتها في دورها التأثيري في عملية التواصل السردي، وتغيير وضعية المرسل، وإعادة توجيه دلالة خطابه وقصديته.

رغم ازدحام السرد بأفعال كلامية من الدارجة الليبية، إلا أن مهارة المؤلف السردية جعلت لهذه الأفعال أهمية محورية في نقل الخطاب مطابقا لواقع التعبير، فنقلت الواقع، ووصفته وصفا دقيقا يعايشه المخاطب ويتعايش معه.

تنوعت أساليب الخطاب في الرواية؛ تبعا لحاجة السياق، وهو مؤشر إلى ثقافة الروائية، ومقدرتها اللغوية الباذخة، فقد وظفت الفعل الكلامي بالشكل الذي تتطلبه طبيعة السرد ومسلك الحوار، وهو ما يعد السبب الرئيس في نجاح الترابط القائم بين البنية اللغوية للفعل ووظيفته التواصلية.

يظهر الدور التداولي للفعل الكلامي في رواية (زرايب العبيد) في حمولته الدلالية؛ حيث يؤدي غرضه الإبلاغي متسقا مع المقام السياقي، ممثلا جسر تواصل بين مقاصد المتكلم وأحوال المخاطب، ولذا فإننا قد نجد الفعل الكلامي مقتصرا على قوته الإنجازية الحرفية المباشرة في سياق ما، بينما تتعدى إلى قوة مستلزمة في سياق آخر؛ حسب حال المخاطب وغرضه التأثيري.

المصادر والمراجع:

-المصادر:

- لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية –مكتبة لبنان– بيروت– ط١– ٢٠٠٢.
- نجوى بن شتوان: زرايب العبيد، دار السافي، بيروت، لبنان، ط٢٠١٦،١م.

-المراجع العربية:

- أحمد محمود نخلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي، دار المعرفة الجامعية، مصر، ٢٠٠٢م.
- بان الخفاجي: مراعاة المخاطب في النحو العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٨م.
- [1]أبو زيد، نواري سعودي: في تداولية الخطاب الأدبي، في تداولية الخطاب الأدبي (المبادئ والإجراءات)، بيت الحكمة، الجزائر، ط١، ٢٠٠٩م.
- حافظ إسماعيل علوي: التداوليات (علم استعمال اللغة)، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط١، ٢٠١٠م
- حلمي خليل: الكلمة (دراسة لغوية معجمية)، دار المعرفة الجامعية، ط٢، ١٩٩٨م.
- صلاح إسماعيل: نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس، الدار المصرية السعودية للطباعة، القاهرة، مصر، ٢٠٠٥م
- عبدالله بيرم: التداولية والشعر– قراءة في شعر المديح في العصر العباسي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، ط٢٠١٢،١م
- عبدالهادي بن ظافر الشهري: إستراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دارالكتاب الجديد، ط١، ٢٠٠٤م
- ليندة قياس: لسانيات النص (النظرية والتطبيق – مقامات الهمداني إنموذجا)، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م

- محمد خير البقاعي: دراسات في النص والتناصية، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط١، ١٩٩٨م
- مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥م .
- نعمان بوقرة: اللسانيات ، اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠٠٩م.

-المراجع المترجمة:

- جاك موشلار، آن ريبول: القاموس الموسوعي للتداولية ، ترجمة: مجموعة من الباحثين ، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة ، تونس ، ٢٠١٠م
- جورج يول: التداولية، ترجمة: قصي العتابي، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٠م
- جيرالد برنس: المصطلح السردي- ترجمة: عابد خزندار- المجلس الأعلى للثقافة – مصر – ط١- ٢٠٠٣م.
- الجيلالي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة: محمد يحي، الجزائر، ١٩٩٢م
- رولان بارت: لذة النص، ترجمة: منذر عياشي، مركز الإنماء الخليجي/ دار لوسي، باريس، ط١، ١٩٩٢م.
- ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال بشر، مكتبة الشهاب، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٨٦م.
- فان ديك: علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة:محمد سعيد البحيري، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.

●فرانسوارأرمينيكو: المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء ، المغرب، ط١، ١٩٨٧م

-الدوريات والمجلات:

●عمر بلخير: التناول التداولي للخطاب الأدبي، مجلة القصة، ع٢٠، ١٩٩٩م.

-منشورات الشبكة العنكبوتية:

●عبدالرحمن الوهابي: معايير قياس أداء التواصل السردي، مقال منشور عبر الشبكة العنكبوتية- رابط: https://www.researchgate.net/publication/310161909